

النقد بين ابن خلدون ومدرسة فرانكفورت

د. فتيحة معتوق

جامعة الجزائر 03

مقدمة:

حين نتحدث عن مفكر مثل ابن خلدون الذي عاش في القرن الرابع عشر ميلادي (1332-1406)، نتحدث مباشرة عن تلك التصرفات الشخصية المتميزة وذلك الاتجاه الفكري القوي نحو المخاطرة الشخصية الهامة. كما يؤدي بنا هذا الحديث الى الوقوف على النتائج الفكرية للالتحفظ والصراحة في الجهد والمجازفة والميل الى قول اشياء عن الحضارة الاسلامية والتاريخ العربي والبداءة والعصبية والعمران...الخ، بأسلوب نقدي واضح قدم من خلاله هذا المفكر آراء وجيهة حول الآخرين، وبطريقة ركزت على القضايا ذات الصلة بالمجتمعات العربية الاسلامية. لذلك، كان الاهتمام الخلدوني وراء بروز خصائص السياق الثقافي والسياسي والاجتماعي لهذه المجتمعات التي تفاعل مفكرها ابن خلدون مع الملوك والسلاطين والامراء والقبائل في مرحلة تاريخية متقلبة الاوضاع في جميع الميادين، ونقصد بذلك مرحلة تراجع الحضارة العربية الاسلامية وتقهقرها أمام نهضة اوروبا.

تمثل المشروع الفكري لابن خلدون في فهم كفايات وأسباب الاضطرابات والانحلال والتجزئة والتفكك وعدم الاستقرار والمؤامرة وغيرها من الاحداث التي كانت أحيانا تهز العالم العربي الاسلامي بحده وبشكل مأساوي. في الحقيقة، اراد ابن خلدون مسائلة هذه المجتمعات التي كان نفسه

يتطور فيها، الامر الذي جعله مورطا في العديد من الاوضاع ومعنيا بها .ففي بيئة مأساوية، أسس أفكاره معتمدا على عقلية نقدية جعلته يبذل جهد كبير في وصف الاعمال والاحوال وذكر سلبياتها حول مسائل جوهرية واضحة. ولم يكن هدفه اسقاط الآخرين، وانما انتقادهم واكتشاف الاخطاء وابرازها بعيدا عن الهوى والاحكام المسبقة . لقد بنى ابن خلدون نقده على اصول شرعية وعقلية بينت ان معرفته بالقضايا التي انتقدها لا تتسم بالقصور والسطحية، وانما تشير الى التقصير في الواجبات والوقوع في المنكرات وغيرها من العوامل التي كان لها تأثيرا كبيرا في تخلف الامة وتأزم أوضاعها في مرحلة انحطاطها الحضاري.

وعلى هذا الأساس، تبين الدراسة الموضوعية لآثار ابن خلدون في التاريخ والبداءة والعصبية والحضارة ، كيف طرح هذا المفكر وعلى نطاق واسع، الفكر النقدي الذي استمر في التطور بعد قرون طويلة وفي مجتمعات مغايرة، بفضل مدرسة فرانكفورت الالمانية التي تمثل جوهرها في نقد المجتمع الغربي. استخدم ابن خلدون مفاهيم واطروحات وتصورات نشأت في بيئة عربية وعبرت عن بعدها الديني الشرعي. كما تميز فكره بالتأمل المعقول في الافكار والاخبار والمواقف وفحص حقيقتها، ثم اصدار الحكم حول قيمتها . وفعلا، فكر ابن خلدون في المعلومات المتوفرة في محيطه العقائدي والاجتماعي والسياسي، وانتقد الاوضاع المرتبطة بها بناء على الامكانيات المعرفية التي كانت لديه، ثم طرح الاحكام في كتب قيمة أبرز مضمونها مهارته في طرح المشاكل وقدرته على التأمل والتفكير واعادة التفكير في قضايا المجتمعات العربية الإسلامية، فضلا عن صدق وقوة الادلة التي اعتمد عليها في تفكيك الواقع والابتعاد عن السطحية والتعمق في نقد ومحاكمة المسلمات ومناقشتها.

ان ما كتبه ابن خلدون يكشف ان الواقع الذي درسه معقد، وسعيه الى توجيه المعرفة الذاتية نحو المجتمع ونحو مصلحة عقلانية ايجابية كشف بدوره

جوانب الخلل في المجتمعات العربية الاسلامية في عصره .ولا شك أن مدرسة فرانكفورت الالمانية التي ظهرت في القرن الماضي، ومن خلال النظرية النقدية كبديل للفلسفة القديمة وعلم الاجتماع الوضعي والامبريقية ، قد سارت في اتجاه نقدي حين قامت بنقد المجتمع الصناعي البورجوازي وعقلانية التكنولوجيا وما يرتبط بها من ايديولوجية ...هذا ما نسعى الى توضيحه في هذه الورقة التي لا نهدف منها تشبيه أو قياس فكر ابن خلدون من خلال ما قدمته النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت أو العكس، لان لكل منهما شبكة من المقومات الفكرية والمفاهيمية والسياسية والاجتماعية التي جعلتنا نفتتح أنه ليس من السهل أن يشارك احدهما في الآخر، رغم تميزهما بممارسة النقد الفكري ورغم أهمية المقارنة العلمية بشكل عام.

و عليه، فان غايتنا بالتحديد هي ادراك أهمية النقد عند ابن خلدون وبالنسبة لمدرسة فرانكفورت، باعتباره قيمة وممارسة فكرية سايرت تطور الفكر البشري القديم والمعاصر. ان النقد بارز و متميز عند ابن خلدون الذي ادركنا من خلال قراءة مقدمته مدى أهمية تحرره الفكري وايجابية شكه في المؤلف ومسائلته للموروث واستبعاده للوثوق .. و نفس الاهمية لمسناها في النظرية النقدية التي عبرت عن القطيعة والاستمرارية في نقد المجتمعات الغربية التي تجددت - مع تطور أوضاعها التاريخية - العديد من القضايا الفكرية التي ما زال الباحثون الغربيون يتناولونها بالدراسة والنقد .

قيمة النقد عند ابن خلدون :

- ابن خلدون ونقد التاريخ:

ينتسب ابن خلدون الى التيار العقلاني النقدي الذي يرتبط بمفاهيم الفكر والتفكير والادراك النقدي الذي يبين ان العقل هو مصدر انتاج المعرفة وممارسة العمليات الفكرية المتداخلة التي من خصائصها التمييز بين الجيد

والرديء، واتخاذ موقف الحذر من صياغة التعميمات، الى جانب الاعتماد على الادلة والمنطق في اصدار الاحكام ... في هذا الاتجاه الفكري، اهتم ابن خلدون كثيرا بالتاريخ باعتباره فنا من الفنون وهو يشكل ظاهرة تستدعي الاخبار والتحقيق والتعليق العميق والدقيق بحيث اعتبره مصدرا من مصادر المعرفة، و انتقد بشدة المؤرخين الذين سبقوه، والذين كانت نظرتهم للتاريخ سطحية وخالية من التحليل والتدقيق والبحث عن أسباب الاحداث اذ قال: " أن فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها (...) وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع ولم يراعوها " ⁽¹⁾، وطبعا هذا ما جعله يرفض اتباع السلف الذين لم يؤرخوا الحقيقة السياسية والاجتماعية.

في هذا الاطار، طالب ابن خلدون بتنقية التاريخ من التحريف والتزوير لبعض الوقائع والاخبار التاريخية محاولا احداث القطيعة المعرفية تجاه عملية التقليد، اذ أكد على أهمية تغيير الطريقة المستعملة في كتابة التاريخ قائلا: "... حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك " ² وبهذا، اتسعت انتقاداته الايجابية والبناءة لتشمل الحقيقة التاريخية في قالب يرفض التبعية الثقافية والسياسية وكل أبعادها السلبية التي عبرت عن التداول والاستخدامات النفعية والذرائعية والغائية التي ميزت المؤرخين في تلك الحقبة، بما فيهم المعهم ممن ساهموا في تزييف الحقائق والاحداث، بحيث قال: "... وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ... " ³

¹ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المحقق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، 2004،

ص 9.

² نفس المرجع، ص 58

³ نفس المرجع، ص 2

و بمعنى آخر، انتقد ابن خلدون كل فئات المؤرخين، وانتقد بالتحديد نظرتهم القائمة على السرد والتباهي بالأسلاف، وكذلك التفاخر بالفرديات على حساب انشغالات المجتمعات. لقد قام أيضا بتوضيح أسباب الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المؤرخين، والمتمثلة حسب ما ذكره في كتابه ' المقدمة ' في التعصب للآراء والمذاهب، الثقة بالناقلين، الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، توهم الصدق، التقرب من أصحاب المراتب بالثناء، المدح والذهول عن المقاصد، الجهل بطبائع المجتمعات في العمران ... الى غير ذلك من الأمور التي جعلته يصف المؤرخين ب "المقلدين ذات العقل والطبع البليد" ¹. ان غياب الموضوعية بالنسبة لابن خلدون كان وراء فسح المجال للتخمينات والوقوع في الكذب الذي أصبح مع مرور الوقت جزء من الحقيقة التاريخية .

تميزت انتقادات ابن خلدون بالجدية وسمحت بظهور منهج جديد في التأريخ والتدوين، ومن خصائصه الدعوة الى شرح أسباب الظواهر من أجل ترقية التاريخ من مجرد فن للسرد القصصي وممارسة لتسجيل الأحداث ...، الى قراءة نقدية تحليلية تفسيرية تتسم بالدقة والموضوعية والمعرفة الصحيحة لقواعد السياسة وأسلوب الحكم وكيفية المقارنة بين الحاضر والماضي وتوضيح أسباب ظهور الظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمع وأسباب انتشارها ... الخ.

ان المبادئ التي يمكن استخلاصها من المواقف الفكرية لابن خلدون في نقده لعملية التأريخ التقليدية تلخص في رفضه للتأويلات الخاطئة التي توجهها الادعاءات والتصورات الفردية التي تعبر عن رؤية جزئية لكل فرد ولكل شيء، اضافة الى رفضه التأثيرات والانعكاسات السلبية للانتماء الطبقي لبعض المؤرخين ودور المصالح الاقتصادية الضيقة والخرافة كإحدى المركبات

¹ نفس المرجع، ص 3.

الاساسية للرأي العام السائد في المجتمعات العربية الاسلامية في عصره ... لهذا تصور عملية التأريخ وقال : "... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ."¹ أن ابن خلدون ومن خلال نقد الروح الخرافية والنزوية للمؤرخين، لم يكتفي بتحديد هدف التاريخ الذي ربطه بالصدق والموضوعية في نقل الاحداث والوقائع ونقد الاخطاء ، بل ألح على متابعة الاخطاء المتكررة وممارسة النقد الصادق بكل أبعاده لتجاوز مجرد النقل، والانتقال الى مستوى التحكم في قواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني، وبالتالي ترقية أسلوب تأريخ وتفسير الظواهر التي تنتشر في المجتمع.

- ابن خلدون ونقد البداوة والحضر:

تحدث ابن خلدون في أسلوب شمولي وديالكتيكي عن الجماعة البدوية أو المجتمع الريفي وكذا المجتمع الحضري، مؤكدا على أن السلطة السياسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل منهما. انطلق بالنسبة لهذا الموضوع من التمييز بين جماعتين موحدتان ومتعارضتان في أن واحد هما البدو والحضر في بلاد المغرب العربي، وانتقد في هذا الشأن الحضرية المؤقتة ومميزاتها الاقتصادية والتجارية . كما وصف الظروف القاسية التي يعيشها البدو اذ قال : " فكانوا لذلك أشد الناس توحشا"² وهذا بعدما حلل موقفهم من التطور الداخلي لمجتمعاتهم، منتقدا انتشار ظاهرة الدنو وعوامل الدفاع الذاتي على حساب السير الطبيعي لتحضرهم.

و في أسلوب مقارن، أضاف ابن خلدون بأن " البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات

¹ نفس المرجع، ص 5.

² نفس المرجع، ص 21.

الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم".¹ على هذا الأساس، انتقد أيضا أهل الحضر وملذاتهم واطرافهم وسلطتهم المزعومة مفسرا أسباب بعض جوانب الحياة الاجتماعية في كل من المدينة والبادية التي كان أهلها يعاني من الهجرة والتغلغل السيئ، بل وحتى عدم التمكن من الاستيلاء على الحكم كنتيجة لطبيعة المعيشة الصحراوية .

و عندما تعرض ابن خلدون لمفهوم العصبية ركز على تحليل هذه الظاهرة في المستوى السياسي، وانتقد أسباب ظهور الفوارق الاجتماعية داخل القبيلة التي تزول فيها هذه الرابطة كشرف وراثي . من جهة أخرى، طرح قضية مفهوم الشعر في الأدب العربي من خلال تجميع الأفكار وإعادة قراءة التعريفات النقدية القديمة المرتبطة بماهية الشعر والنثر من أجل إبراز قصورها عن شرح ماهية وحقيقة الشعر. وقد توج مجهوده النقدي بالنسبة لهذا الموضوع بتقديم تعريفا جامعا حدد عناصر الشعر وصناعة الشعر كعملية ثقافية لها أهلها في المجتمع .

لقد واجه ابن خلدون انحطاطا اجتماعيا واخلاقيا في عصره، وشهد العديد من الهزائم، واتجه بعقله لفهم ذلك الواقع في ضوء ارتباطه بالمراحل التاريخية السابقة . واستخلص في هذا الشأن، بأن بناء الحضارة له شروط مادية وبشرية لا يمكن التحايل عليها، وأن انجاز التقدم مهمة غير عشوائية لها متطلباتها التي تملئها القوانين التاريخية والاجتماعية للمجتمع . وبفضل استيعابه للفكر الاجتماعي العربي الاسلامي وخصوصياته، وتبني النظرة التحليلية النقدية لهذا التاريخ على أساس الجدلية المأساوية بين البداوة والحضارة، استطاع تجاوز الفهم الرومانسي للحقائق وطرح القوانين الفاعلة في حركة المجتمعات. انه أدرك أهمية القراءة النقدية للأحداث في التاريخ والعمران والسياسة

¹ نفس المرجع، ص 213

والاقتصاد والتربية، بحيث اخضع كل قضية نقدية الى التحليل النقدي دون التخلي عن الترابط والانسجام المنطقي الذي يفرضه المنطق النقدي.

- النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت:

ارتبط اسم مدرسة فرانكفورت بالنظرية النقدية في معناها الفلسفي والذي ينبغي تمييزه بدقة عن الدلالة المعروفة في النقد الادبي. ان مدرسة فرانكفورت متميزة أيضا عن النظرية النقدية لكون الأولى هي حالة خاصة من النظرية النقدية ولكون هذه الأخيرة لا تقتصر علي مدرسة فرانكفورت كحركة فلسفية نشأت بمدينة فرانكفورت سنة 1923، وأصبحت أساسا نظريا لأغلب النظريات والاتجاهات النقدية لما بعد الحداثة، خاصة في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. تمثل الشغل الشاغل لهذه المدرسة في الماركسية وجملة من الاوضاع السياسية والاجتماعية لألمانيا المعاصرة بهدف ممارسة النقد بمفهومه الواسع الذي يضم الفرد والمجتمع والسياسة... الخ.

انتشر تأثير النظرية النقدية في أوروبا في نهاية الخمسينات من القرن الماضي بعد أن ظهر اليسار الجديد. وتعود الحجة الفلسفية الأساسية لهذه النظرية الى رفض نظرية الهوية التي اعطاها الفيلسوف هيكل شكلها المكتمل، والتي جمعت بين الهيكلية والماركسية ومدارس علم الاجتماع وعلم النفس. انطلقت النظرية وبفضل هوركهايمر من نقد المجتمع الغربي وبالتحديد نقد الجهود الذي يبذلها هذا المجتمع من أجل الاستمرار دون احداث أي تغيير أساسي من شأنه أن يساعد على تجاوز مصائب العقلانية والتحرر من قيودها، وهو ما يتحقق حسب رواد النظرية عن طريق نقد العقل ذاته، أي نقد ما أطلق عليه العقل الاداتي الذي استمر في اخفاء التناقضات واضفاء الطابع

العقلي على كل شيء.¹ في هذا الإطار، طالب بتفكيك وتحليل منظومة القيم والعلاقات التي انتجها في المجتمعات الغربية العقل المتمركز حول الذات، أي العقل الذي يلتزم على المستوى الشكلي بالإجراءات فقط ويوظف الوسائل دون أهداف ودون التساؤل عن مضمونها.

ومن خلال الاستمرار في نقد العقل التماثلي أو نظرية الهوية التي تؤكد على أن هناك تطابقا بين الذات والموضوع، وكذلك نقد فلسفة التنوير التي اعتبرها هوركهايمر وزميله أدورنو فكرا بورجوازيا، تم نقد الواقع المعاصر الذي أصبح يتعارض مع الفرد ويهيمن عليه، حيث أصبح الإنسان المعاصر حسب النظرية النقدية أسير عبودية الحاجات اليومية والاستهلاك. وهو ما تطلب نقد تمركز الإنسان المعاصر حول الحياة اليومية ونقد مظاهر مصارعة نفسه في مجتمعات قمعية، تبعده عن الحرية والوجود الذي يريده بسبب أيضا ما تنشره وسائل الاعلام والاتصال في ظل اتساع اقتصاد السوق والعقل الحسابي والمردود المادي، مقابل اغفال دور العلم الحقيقي الذي من غير المعقول أن تلخص مهمته في تفتيت الوعي الانساني وتدعيم أسطورة العقل الاستهلاكي كصورة مركزية للحضارة الغربية.²

ومن جهته، تمكن هابرماس منذ بداية ستينات القرن العشرين من تقديم اشكالية سياسية حول الحداثة سمحت بالانتقال من فلسفة الذات الى فلسفة التواصل التي تعد محاولة فكرية جديدة هادفة الى عقلنة السياسة تواصليا لتثبيت قيم الديمقراطية التشاورية والمواطنة ومجتمع ما بعد العلمانية. انتقد هابرماس الطابع التقني الوضعي القمعي للعقل في الممارسات الرأسمالية والأشترائية، والتي اكتفت بدمج الناس ضمن خطابات عقلانية تغطي الاستلاب

¹ ألن مايو، النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت، ترجمة ثائر ديب، المركز القومي للترجمة، 2003، ص 30.

² حسن محمد العبيدي، فلاسفة مدرسة فرانكفورت ونشأتها، كتابات، 2013، ص 52.

والهيمنة التي انتجها عالم الصناعة والتكنولوجيا . غير أنه في نفس الوقت، رفض الانتقادات التي استهدفت جملة وتفصيلاً عقلانية الحداثة، بحيث انتقد على وجه التحديد ميشال فوكو الذي تمرد حسبه وبتساؤلاته المعرفية على سلطة العقل وقدرته اللانهائية .⁽¹⁾

صاغ هابرماس نظرية الفعل التواصلي ونظرية العقلانية التقنية التي برز منها مفهوم العقل التواصلي محاولة منه لتنمية البعد الموضوعي الانساني للعقل الذي يضمن الحوار بعيداً عن كل اشكال الهيمنة، ويخلص بالتالي الانسان من تسلط السياسة التي استعمرت الحياة اليومية للناس عن طريق ممارسة البيروقراطية ومعادلة الفعالية وفلسفة الربح وتراكم المال والرأسمال . و تضمن المشروع الفكري النقدي لهابرماس عدة مفاهيم اعتبرها نقدية وأساسية، من أهمها مفهوم الفاعلية التواصلية التي تشير الى سلوك أخلاقي غايته ممارسة الاقناع . و من جهة أخرى، طور مفهوم المجال العام أو ما يسمى بالفضاء العمومي لمعرفة كيف يمكن للفكر النقدي أن ينخرط في فهم هموم المجتمع المعاصر و ابراز ايجابيات التواصل وفوائد العقلانية التواصلية التي هي أساس بناء السلطة التواصلية في المجتمعات المعاصرة.

وهكذا، عبرت عملية النقد بالنسبة لمدرسة فرانكفورت عن القطيعة والاستمرارية بسبب اختلاف الاوضاع التاريخية وتجدد القضايا الفكرية، خاصة بعد تغير المواقف من الماركسية الكلاسيكية والثورة العمالية المشوذة. انها نظرية نقدية واحدة للمجتمع تخلت عن النظرية الأصلية التي كانت تنطلق من ماركس ونظريته الثورية، فيما انطلقت النظرية الجديدة من تخطيطه والتخلي عن الممارسة الثورية وعن هدفها المتمثل في تحقيق المجتمع اللاتبقى . ومهما كانت أهمية التغير الذي مس مواقف نقاد مدرسة فرانكفورت، تبقى الماركسية

¹ -بورجن هابرماس، القول الفلسفي للحداثة،

Philobouzareah.ahlamountada.com/t48-topic

على كل حال المرجعية الأساسية في التكوين الفكري لهذه المدرسة التي سادها التشاؤم جراء توالي الاخفاقات وأشكال الفشل التي عايشها روادها خلال الاربعينات من القرن الماضي.⁽¹⁾

أخيرا، للنظرية النقدية سمات بمعنى العلم أي كتنظيم للوقائع التي ندركها في الدقة التي هي غاية العلم، وتتجسد موضوعية هذه النظرية حسب منظريها أيضا في موضوعية العلم الذي ينبغي ان يكون حقيقيا، وان يسلك سلوكا نقديا ازاء نفسه وازاء المجتمع الذي ينتجه.

وفي اتجاه نقدي وعلى اختلاف العقلانية التي تمثل نزعة علمية تؤدي الى افناء الذات، تراكمت تناقضات جديدة وطرحت تساؤلات جديدة بحثت فيها النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التي لاحظت أكثر وأكثر التحول الهيكلي في المجال العام الذي يسوده التصور البورجوازي للديمقراطية، والذي يترجم علاقات البيع والشراء في عالم السياسة. لذلك، واصلت نقد التسلط السياسي والهيمنة التي أدت الى ظهور احتكارات للرأي تحت سيطرة الفئات المهيمنة، ومن تم نقد السلبيات التي أضافت مسائل جديدة للصراع الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة التي أصبح فيها العلم والايديولوجيا وسائل لممارسة القمع من أجل تحويل الرأي العام .

لقد انشغلت النظرية النقدية بالبحث في الاسئلة التي اقترنت ببعض القوانين الاقتصادية منها قانون التراكم الرأسمالي وقانون فائض القيمة في ظل احلال التكنولوجيا المتقدمة محل الايدي العاملة . والبحث عن اجابات لهذه الاسئلة سار في اتجاه نقدي استفاد من الماركسية الكلاسيكية ومن ادواتها في نقد المجتمع البورجوازي والبحث عن القوة القادرة على التغيير .من جهة أخرى، لا يمكن اعتبار مدرسة فرانكفورت اول مدرسة نقدية في الفكر

¹ بورجن هابرماس، الاخلاق والتواصل، 1994، www.bookssteam.com/book/1994

الانساني، وما قدمته هو حصيلة قراءة توليفية بين الماركسية والهيكلية ومخرجات علم الاجتماع وعلم النفس لتحليل المتغيرات التي شهدتها المجتمع الرأسمالي الحديث.

- قراءة وتحليل:

ان الدارس لفكر ابن خلدون وللنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت يلاحظ مدى مساهمتهما في تطور الفكر النقدي، ويلاحظ أوجه تشابه كثيرة بينهما جعلت مجال المقارنة أمراً مطروحاً أمام كل من يقرأ 'المقدمة' والمتتبع لما جاء في كتاب 'جدل التنوير' الذي ألفه هوركهايمر بالاشتراك مع زميله أدورنو، وهذا من حيث تماثل المواقف والأفكار بسبب التأثير بمكونات ذاتية وظروف محلية وتجارب شخصية قاسية متشابهة إلى حد كبير - رغم اختلاف السياق الزمني والمكاني - والتي جعلت مواقفهم متشابهة من قضايا التاريخ وواقع المجتمع ومسائل السلطة... لقد عبر ابن خلدون من جهة، وهوركهايمر وشريكه من جهة أخرى عن التناقضات والسلوكات التي طبعت عصرهما بناء على المعطيات والملاحظات التي تعبر عن الخصوصيات التاريخية والثقافية لمجتمعات مختلفة في جوانب ومتشابهة في جوانب أخرى، أهمها التنافس والصراع السياسي والتدهور الاجتماعي...

وعليه، لاحظنا مدى سيادة النظرة الواقعية النفعية التي أدت بابن خلدون وأصحاب النظرية النقدية إلى تسجيل آرائهم وتقييم الأوضاع السائدة وفق نظرة واقعية نفعية، وبعيدا عن الاعتبارات الذاتية الضيقة. لقد كان الاعتماد على السببية والمصلحة العامة أمراً بارزاً شكل أساساً قوياً لتوجههم النقدي في فهم الأحداث وتقييم الأشياء، إذ عرضوا الملاحظات التي جمعوها من خلال تحليل القضايا التي اهتموا بها، وفق تصور واقعي عملي يستجيب لحقيقة المجتمع وواقعه ويعبر عن سلوك الحكام. من جهة أخرى، لم يكتب ابن خلدون في

سياق أخلاقي أو مثالي ، و لم يكتب هوركهايمر في اطار محافظ يفرض مفاهيم رجعية لتبرير النظام الرأسمالي القائم أو اخفاء التناقضات التي جلبتها الثورة الصناعية والتكنولوجية في مجتمعات غربية تكبدت خسائر مادية ومعنوية كبيرة على مستوى الفرد والجماعة رغم تراكم المال والرأسمال والتقدم التقني ... انهم طرحوا أفكارهم في شكل استنتاجات نقدية منطقية امتزج فيها التاريخ بالفلسفة وعلم السياسة وعلم الاجتماع. ويمكننا تلخيص ملاحظتنا كالتالي:

- طرح كل من ابن خلدون وزعماء النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت أفكارهم النقدية البناءة من خلال الاستعانة بالشك المنطقي في اثبات موضوع العلم الجديد بالنسبة لابن خلدون والذي سماه ' العمران البشري ' . لقد خصصه لبيان المسائل والظواهر الاجتماعية وتبدل الاحوال في الامم والاجيال وما لذلك كله من العلل والاسباب...، بينما درس هوركهايمر وزميله أدورنو مواضيع الفاشية وتشكل الشخصية المستبدة وقضايا علم الجمال والتحرر والبيروقراطية الحديثة والتسارع الثقافي او ما سمي بالصناعات الثقافية وثقافة الاستهلاك والتنميط ...

- استعان ابن خلدون بالشك في تحليل الروايات والاعمال التي شكلت مادة التاريخ، وقام بانتقادها انطلاقا من الشك في صحتها بسبب انتشار في مجتمعه مظاهر التشيعات والآراء والمذاهب والتقرب لأصحاب المراتب والثقة المفرطة بالناقلين والذهول عن المقاصد وولوع النفس بالغرائب والمحاكاة... الخ. وجسد هذا العمل الفكري اختياراته لإتباع طريق صحيح يؤدي الى التمييز بين الممكن والمستحيل من الاخبار بعد ملاحظة المجتمع وظواهره، والتعرف على خصائصها الداخلية واستخراج الاختلافات بينها والحكم عليها بأسلوب منطقي ونسبي. ومن جهتها، انتقدت النظرية النقدية الافكار الهيقيلية وفلسفة الانوار التي لم تحرر الانسان من الباطل والخوف والقوى الشريرة، بل أدت بالناس في المجتمعات الغربية الى العيش في ظل شروط تاريخية تتحكم

فيها 'الضرورة الحتمية' التي توجه تطور الرأسمالية . لقد تم بالتحديد نقد عملية تفكيك سيرورة العقل التي لم يعد تفكيكها ممكنا بعيدا عن لعبة المصالح المتصارعة في المجتمع، وهو ما يعني نقد اللعبة المتناقضة اللاعقلانية التي تحيط بالمصالح المتضاربة التي تعرقل عملية اقامة مجتمع عادل، يتسق مع مقتضيات العقل الذي يعد الوسيلة الوحيدة لإقامة مجتمع من الناس الاحرار واناخذ الحرية من اليوتوبيات التي جاء بها النظام الرأسمالي على وجه الخصوص.

- نلاحظ أن ابن خلدون وأصحاب النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تعاملوا مع الفرد ليس كأنا منعزل وبعيد عن الحياة الاجتماعية، بل كفرد يعيش في قلب تنظيم سياسي واجتماعي واقتصادي، و رأوا بأن التغيير في أوضاع المجتمع يكون نتيجة أزمات متتالية .، ترتبط عند ابن خلدون بإشكالية الدولة ومؤشرات مرحلة الحضارة الفاسدة التي تشهد ارتفاع الضرائب والاعتماد على السيف من أجل البقاء، وانتشار العصبية بالجنود والكساد وانحلال الاخلاق...الخ. أما التغيير حسب النظرية النقدية فسوف يكون نتيجة أزمات لن ترتبط بإفقار الطبقة العاملة مثلما رأى كارل ماركس، خاصة وأن وضع العمال صار أفضل بصورة ملموسة مما كان في زمن ماركس، و لكون الازمات الاقتصادية الصعبة صارت هي الاخرى نادرة بفضل التدابير السياسية الاقتصادية الحديثة...ان التغيير يكون نتيجة أزمات مرتبطة بغياب الحرية والعدالة وانتشار المماثلة والاحكام القاطعة التي تثير المصالح أو ترتبط بها، وسيطرة العقلانية التكنولوجية وما يرتبط بها من ايدولوجية قمعية أسست اللعبة المأساوية في المجتمعات الرأسمالية.

- ان النقد بالنسبة لابن خلدون وهوركهايمر وأدورنو وهابرماس وغيرهم من علماء مدرسة فرانكفورت عبر عن محاولات فكرية جادة لإيجاد بديل نظري له أبعاد فلسفية واجتماعية أدت بابن خلدون الى البحث عن أماكن الخلل في

المعرفة التي كانت سائدة في عصره في البلاد الاسلامية من أجل تصحيحها، وجعلت أصحاب النظرية النقدية يقفون أمام التيارات الفكرية والفلسفات التقليدية التي مارست أنواعا من السلطة أجبرت النظرية على التراجع مقابل انتشار الوساطة والدراسة الشكلية للحقيقة. أذن كان الهدف من النقد هو الشروع في لحظة تاريخية معينة في القيام بالواجب تجاه القوى الاجتماعية من خلال توجيه المعرفة الذاتية نحو مصلحة عقلانية ايجابية لتكون معرفة اجتماعية هدفها نقد المجتمع القائم والكشف عن جوانب الخلل فيه بل وحتى رفضه اذا كان سلبيا.

الخاتمة:

لقد طور ابن خلدون فلسفة ومعرفة اجتماعية نقدية حول ازمة الانسان في عصره، ونفس الانشغال اهتم به أصحاب مدرسة فرانكفورت التي بحثت في هموم الانسان المعاصر وتطلعاته المستقبلية. انهم اهتموا جميعهم، ورغم اختلاف السياق المكاني والزمني الذي يفصل ابن خلدون عن هوركهايمر وزملائه، بنقد المجتمع ومؤسساته وكذلك نقد الفكر وآلياته. تميز اتجاههم النقدي بالجدلية بفضل الربط بين الفكر والممارسة. هذا الاتجاه النقدي لا يخلو من الصراع الذي تحركه العصبية عند ابن خلدون، و تحسمه القوى الاجتماعية التقدمية بالنسبة للنظرية النقدية.

أن الغاية التي دافع عنها النقد عند ابن خلدون هي تحرير الانسان من طبائع الاستبداد وأحوال الاستعباد التي يفرضها صراع العصبية، بينما أراد مؤسسي مدرسة فرانكفورت معارضة الواقعية الامبريقية التي تجسدت في الثقافة الجماهيرية ونجومها بسبب انتقال مصدر السلطة في المجتمعات الصناعية من القوة الاقتصادية الى القوة الابداعية التي عبرت عنها كفاءات انتاج الافكار والمعلومات ومختلف وسائل الانتاج الفني والاعلامي، اعتمادا على العقل

الاداتي الذي يكتفي بالالتزامات الشكلية والتمركز على الذات وممارسة الهيمنة على الانسان الذي تاه في الحساب والفهم بعيدا عن النقد، بهدف التطابق مع فعاليات السلطة التي أقهرت الناس من خلال اصفاء الاهمية على كل شيء .

وعليه، نعتبر قيمة النقد من أهم القيم النظرية والمنهجية والعملية التي استجابت لمقتضيات التيار العقلاني النقدي في فكر ابن خلدون الذي أراد من خلال أطروحاته النقدية المتكاملة كشف الحقائق التي تحول دون اقامة مجتمعات اسلامية عادلة في السياسة والاجتماع والاقتصاد رغم ما تتمتع به من توجيهات شرعية . فمن خلال رؤيته عن العمران البشري وكيفية تكوينه، تبلورت نظريات في العصبية ودورات الدول و العلاقات التي تربط المجموعات البشرية...، الى غيرها من المواضيع التي كانت موضع مسائلة عقلانية تربط الاسباب بالمسببات في تركيب منطقي يشمل كل شيء . وهذا ما يتميز به عصرنا الذي تحول فيه النقد البناء والعلمي الى ظاهرة فكرية عالمية . أما النظرية النقدية، فقد تمكنت من التفكير في التواصل ومسائلة الفضاء العام لتوجيه قضايا العصر في اتجاه نقدي كرس مسائلة نتائج تطور وسائل الانتاج وانتشار العنف الرمزي والقهر والتضليل الاعلامي والتسلط والسيطرة .